

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١- القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

« [ق ١ أ]^(١) واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس؛ فإن ذلك يولد خشونة اللفظ، الذي تمجُّه الأسماع.

والكلام، إذا خرج من القلب، وقع في القلب. ولا خَيْر في رام رَعش؛ ولا متكلم هائب؛ فإنَّ الهَيْبَةَ فرعٌ [من] المخافة، والمخافة فرعٌ [من] الحذر؛ ومن حذر فقد عقَّله؛ ومن خاف، تكدر عيشه، ولا تصحُّ مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان، ويذكي بها الجنان؛ فالنفس إذا منعت ما تشتهى، تُرى مختلطة، وتصير كأنها بطوارق الخبل مختبطة.

ولا يجب على الناظر والكااتب أن يتبع هواه في أمره كله: فكل ملقن ملقن حُجته، ولا عليه أن يرفض ذلك؛ فيكون بانيئاً على غير أصلٍ وعملاً لغير نهاية. وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويُفسد حال نفسه، وهو لا يشعر؛ بل يصرف نفسه على فرقين: يسعى في بلوغ أمِّه وإدراك مُرادِه دون أن يكون ذلك مخلاً بذكره ولا غرضاً لعدوه. وكل بيان ما لم يكن صواباً، فهذر. وليس يُحمد لواضع كتاب أو ناظم خَبَر أكثر من جودة التأليف فقط، لأنَّه إنما وضع ما قد سبقه إليه غيره؛ وكل أحد ينفق ممَّا عنده.

وإنَّ الأوَّل لم يدع للأخر شيئاً. فلو كان نطقُ الناس إحالةً بعضهم على بعض، ما سُمِع أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكر، ولا يتبرع في [شئ]!. ولكنَّ الأوَّل أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه في قوله: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾^(٢).

وليست الفائدة فيما قصدنا إليه ذَكَرَ خَبَر يوصف ويأتي عليه نادرة مستطرفة، أو حكاية مستغربة، أو معنى يؤدى إلى تأدب وانتفاع. فلعلك - أيها المتأمل كتابنا - أن يكون عندك أو طراً إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا. فتعجز واضعه: فليس إلا كما قدمناه. اللهم إلا أن يكون حديثاً يؤدى إلى القيام بحُجة صاحبة الاعتذار^(٣) [ق ١ ب] عنه من أمر قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة، فنطق هذراً، وساعد عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً، وطعنوا على غائبٍ أو ميَّتٍ لم يُجر الجواب عن نفسه، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه.

(١) هنا يبتدى، نص الخطوط، إذ تلفت منه الورقة الأولى.

(٢) سورة الزمر الآية ١٨.

أو أبان المؤلف عن نفسه جِدْقًا ومعرفةً تُذَكِّرُ عنه وتُنشِرُ بعده: فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ آكِدٍ مَا يَجِبُ لَهُ السَّعْيُ فِيهِ وَإِعْمَالُ ذَهْنِهِ وَحَوَاسِّهِ فِي تَلْخِيصِهِ، إِنْ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ اغْتِنَابُ بِجَمِيلِ الثَّنَاءِ، وَأَنْفَةٌ لِسَوْءِ الْمَقَالِ، وَنَشَاطٌ عَلَى تَرْفِيحِ الذِّكْرِ، مَعَ فَتْوِ الْهَمَةِ وَصَبْوَةِ الْقَرِيحَةِ. وَإِلَّا، فَالْأَمْرُ نَاقِصٌ مِنْهُ، وَاللِّسَانُ عَيٌّْ عَنْهُ.

وَلَا سَبِيلَ إِلَى اجْتِمَاعِ أَمْرَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ فِي الْإِنْسَانِ مَعًا، وَلَا فِي غَيْرِهِ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. فَإِنَّهُ، مَتَى ارْتَفَعَ أَمْرٌ، نَزَلَ ضِدُّهُ: كَالْحَيَاةِ، إِذَا ارْتَفَعَتْ، وَجِبَ الْمَوْتُ؛ وَإِذَا ارْتَفَعَتْ الصِّحَّةُ، وَجِبَ السَّقَمُ؛ وَإِذَا ارْتَفَعَ الْكَرْبُ، وَجِبَ الْفَرَجُ.

هَكَذَا نَسَقُ كُلِّ أَمْرٍ: كَالْعَامِلِ لِلْآخِرَةِ مُحَضًّا، لَا يُدُّ لَهُ مِنْ نَقْصَانِ دِينِيهِ. أَلَا تَرَى أَنَّ مُؤَلِّفَ الْكِتَابِ، إِنْ كَانَ غَرَضُهُ نَظْمُ الْكَلَامِ وَسَجْعُ اللَّفْظِ، كَانَ ذَلِكَ ضَارًّا بِالْمَعْنَى؛ وَإِنْ أَتَى بِهِ، فَإِنَّمَا يَسُوقُهُ بَعْدَ تَحْلِيْقٍ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا وَضَعَهُ مِنْ غَيْرِ شَكْلِهِ. وَإِذَا تَمَّ الْمَعْنَى، نَقِصَ بَعْضُ اللَّفْظِ؛ كَمَا قِيلَ: «إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ، نَقِصَ الْكَلَامُ». وَأَرَى أَنَّ مَسَاقَ الْحَدِيثِ فِي التَّأْلِيفِ بَعْضُهُ لِبَعْضٍ أَحْسَنُ خَرَطًا وَأَفْضَلُ نَظْمًا مِنْ تَقْطِيعِهِ. وَلِهَذَا نُرِيدُ إِبْرَادَهُ كَالْحَدِيثِ «[فَالْحَدِيثِ] ذُو شُجُونٍ»، وَنَضْرِبُ الْمَثَلَ لِبَعْضِهِ بِبَعْضٍ: فَيَتَّقَى إِبْرَادُهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَنَصُّهُ عَلَى أَكْمَلِ مَا يُمْكِنُ.

٢ - حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ وَالرُّدُّ عَلَى مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ

وَمَنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ دِينِيهِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا، وَأَدْرَكَهَا بِبَصَرِهِ وَجَمِيعِ حَوَاسِّهِ، فَهُوَ لِآخِرَتِهِ أَجْهَلُ، [آخِرَتِهِ] الَّتِي لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالتَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ، بَعْدَ مَا حَضَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَأَتَى بِهِ الرَّسُولُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَنْدَرُّ أَوْلُوا الْأَلْتَبِ﴾^(١). وَمَا^(٢) [ق ٢٢] يَصْلِحُ لِنَفْسِهِ لَا يَصْلِحُ لِغَيْرِهِ. وَأَضَلَّ الْعِلْمُ كُلَّهُ مَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِ بِدِينِهِ، وَ[يَقِينَتِهِ] بِمَعَادِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ عَيْبًا. فَإِذَا صَحَّتْ مَعْرِفَتُهُ بِذَلِكَ، كَانَ أُخْرَى أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ لِدِينِيهِ الَّتِي يَشَاهِدُهَا مَعَابِنَةٌ.

وَالرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ عَلِمَ فَعَمِلَ: فَذَلِكَ الَّذِي يُدْعَى فِي الْمَلَكُوتِ؛ وَرَجُلٌ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ: فَذَلِكَ الَّذِي يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ؛ وَرَجُلٌ لَمْ يَعْلَمْ وَلَا عَمِلَ: فَذَلِكَ، إِنْ مَاتَ، يَمُوتُ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً، وَلَا تَصِحُّ لَهُ مَعْرِفَةُ دِينِهِ إِلَّا بِأَنْ لَا يَقْدَحَ فِيهِ قَوْلُ كَافِرٍ وَلَا مُعْطَلٍ. فَإِذَا حَسُنَ تَمْيِيزُهُ عَنِ الصَّنَفِ الْمُلْحَدِ، عَرَفَ فَضْلَ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَ عَلَى يَقِينٍ وَجُودَةٍ نَظْرًا، لَا بِاسْتِهْزَاءٍ؛ وَلَا تَقْلِيدٍ، فَيَعْبَزُ وَيَشْكُ. وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمُلْحَدَةِ، غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ^(٣) مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ يَؤَاهِمُ، فَالضَّلَالُ مِنْهُمْ بَيِّنٌ، لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى قِيَاسٍ وَلَا تَفْتِيْشٍ. وَأَمَّا مَا يَزْعَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَلَهُمُ الدِّينُ الْقَوِيمُ^(٤)، وَأَنْ قَوْلُهُمْ أَخْلَ [بِغَيْرِهِ]، فَالرُّدُّ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: «إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ نَبِيٌّ وَلَا سُنَّةٌ، فَلَا يَكُونُ

(١) سُوْرَةُ الرَّعْدِ آيَةُ ١٩.

(٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ.

(٣) أَوَّلُ: «الْقَدِيمِ».

هذا القياس إلا بأن تكفروا بمن كان قبل نبيكم من الأنبياء! ألم تكن قبل موسى شرائع وكتبٌ منزلةً وأنبياء عدّة؟ فلو كان على مذهبكم، لا ينسخ دينٌ ديناً، لم يجب لكم أنتم شيء! وإن الله تعالى لا يترك الخلق سُدى مُهمّلين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١)، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبدهم بعضهم لبعض، ما لم يكن في حكمة الله ومشيئته أن يترك المرء ودينه، ولا يمهل من يعبد سواه حتى بعث محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالحق بشيراً ونذيراً؛ فصدع بالقرآن، وجاهد في الرحمن، وسنّ السنن، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر. وكان في ذلك الزمان قد ضلّ أهل الكتاب، واختلفوا، وردّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصح لفرقة منهم شريعة مع الأخرى؛ وكانوا كم [ق ٢ ب]....^(٢). الله تعالى؛ فحتم الله الرسالة بنيينا - عليه السلام - ليبيّن له ما فرضه عليهم، ويظهره على الدين كله! إن يقولوا: «ما جئنا من بشير ولا نذير!» وقال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِتْهَاجاً﴾^(٣)، فالحجة عليهم ظاهرة على ما بيّناه فيما يعطى العقل والقياس. وأمّا تبيان نبوته - عليه السلام - في الآيات التي جرت على يده، فأكثر من أن توصف. وإذا قتلت أحدكم ببعض هذه الحجج؛ فمن ينتحل منهم فيّها في علمه وسداداً، يرجع إلى أن يقول: «إنما كان رسولاً إلى العرب!» فتأمل تناقضه؛ وكيف أثبت له الرسالة؛ ومتى وجب إثبات الرسالة، فقد أوجب على نفسه التصديق في كل مقالة وما أتى به. ثم الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حُرّاً وَالْعَبْدَ﴾^(٤)؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جملةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ.

٢- قصور القياس دون عون من الوحي

وقد كانت معرفة الباري، تعالى بالعقل اضطراراً لقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٥).

ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدرکه عقولهم، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً، مستضعفين، لا يطبقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولغلب جهالهم وعامتهم التظلم، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه. فكانت النعمة ممّا أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل، ليكون ما أتوا به دواءً لنا في الصدور وهُدًى ورحمة؛ فمن عرف الله قبل بالعقل، أتم عليه نعمته؛ فقد عرفه نفسه

(١) سورة فاطر الآية ٢٤.

(٢) خرم نحو سطر في الأصل.

(٣) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٤) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٥) متفق عليه.

(٦) سورة الزخرف الآية ٨٧.

باليقين، وبشره بالثواب، وأنذره العقاب، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً.

ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن^(١) [ق ٣ أ].....^(٢) الذين أبانوا عنها؛ والظن أكذب الحديث والشرع، ومن تقلده بطل [رآه]. وليس حكّم الباري تعالى مما يجري على قياس: كيف؟ وهو خالق القياس، وهو واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء. ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة؟ ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهرية. والحق إنما يكون في طرف واحد، فهم يخبطون خبط عشواء، وإذا قننت على الحق، فإنما تجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن وحديث الرسول - عليه السلام -، فهم يتكلمون على أصل، وغيرهم على قياس: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(٣).

وترى من المُجدين كثيراً [من] لا يؤمن بالغيب ويقول: «إنما أعلم ما تدركه حواسي من حارٍ وباردٍ ورطبٍ ويابس، وما أدركته بعقلي مما كان؛ ولا أعلم ما يكون، وإنما أنا الآن». فالرد عليه أن يقال له: «أتدري بم عرفت هذا كله؟» سيقول: «بالنفس. وعلمت النفس بالعقل الذي هو أرفع الدرجات». فنقول له: «إذا عرفت بالعقل ما أنت فيه، لم يكن لك شيء متقدّم تعرف به العقل، ولا استطعت لنفسك، ولا علمتها قبل؛ فتركت فيها عقلاً وتدبيراً. وواهب العقل الذي خلقك وتدبرك كيف شاء؛ قادرٌ على أن يعيدك ولا يجعلك هملًا، ولم يخلقك غيبًا! ولو أنك تعلم - أيها الشقي - أن العقل، إذا جحدت به آيات ربك، كل عليك وحمل يوم القيامة؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَعَتُهُمْ وَلَا أَبْصَرْتُهُمْ وَلَا آفَعَدْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَحْسَدُونَكَ يَا أُنْتِ اللَّهُ﴾^(٤). وقال: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَلَاوَيْسَىٰ خَلَقَهُ﴾^(٥). وقد أنت الرسل بالآيات التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في العالم أشد استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثر البشر. وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس؛ ولا يعجز الله في قدرته على ما يشاء^(٦) [ق ٣ ب] جاحد كافر.

كقول أهل الطبيعة: إنها هي تدبر كل شيء، وإنها أعلم [من] كل عليم وأحكم [من] كل حكيم؛ فنجع من فعلها في الأبدان ما لا تدركه الأطباء باجتهادها. وقال غيرهم: «الطبيعة اسم واقع على غير شيء؛ لا يدري ما هو.» فالحجة عليهم: أهي طبيعة واحدة، أم طبائع كثيرة؟ بل، سيقولون: «لكل شيء طبيعة، فأرى أصدادا لا تصح لأحدهما إلهية. وغيرها مناقض لها. وهي كانت حجة إبراهيم على قومه وردّه على من قال إن الشمس هي حياة

(١) خرم نحو نصف سطر في الأصل.

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٦.

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٦.

(٤) سورة يس الآية ٧٨.

العالم دون غيرها؛ فقال - عليه السلام - : «أرى الظلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس؛ والخالقُ لا يُضادُّ!»^(١) فأثبت الوجدانيَّة بالْحُجَّة القاطعة الواضحة.

وقد ذُكر عن سُقراط، وكان في زمن جاهليَّة، أنه قال، بما أُوتى من الحكمة، مخاطباً البارئ عزَّ وجلَّ: «يا أزلَّ الأزلَّ! ويا أوَّل الأوائِل! ويا قديماً! لم يَزَل مِنِّي نازكٌ لِعَلِمِي أن هذه المخلوقات من أثاركَ؟» ولم تكن معه فِتْنة يتبعونه على قوله، ولا يعقلون ما قال، حتى أمروا بقتله.

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكره أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخواصِّ الناس دون الرسالة، عليَّ أنه لا يشكُّ ذو عقل أنَّ المخلوقات قد جعلها الله عِللاً بَعْضها لِبَعْض، ولم يخلقها عَبَثاً؛ ولكلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إلى أن ينتهي ذلك إلى البارئ عزَّ وجلَّ؛ فهو الذي لا فوقه شيءٌ. وهو قولُ إِفلاطون لموسى - عليه السلام - إذ قال له: «يا أخى؟ رسولٌ من أنت؟» أراد استخباره؛ فقال له موسى: «أنا رسولُ العِلَّة». فقال له إِفلاطون: «ما العِلَّة؟» قال: «لا أدري! ولو كنتُ أدري، لكنتُ أنا العِلَّة! إنما أنا متَّبِع!» فقال له إِفلاطون: «انهبْ وبلغْ ما شئتُ! فالآن صحَّ عندى أنك رسولٌ حقاً!» وكذلك الجزُّ لا يُحيط بالكلِّ، والكلُّ مُحيط بجميع الأَشياء؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٢).

وكذلك [ق ٤ أ] أهل الهندسة والمعرفة بالتجوم قد علموا أنها مخلوقةٌ مُصرَّفةٌ لما... العباد؛ والعاقِل منهم يقرُّ بذلك، غير أنه نهى عن النظر فيها والاجتهاد فيما نهى عنه، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة؛ والفسادُ أسرع من البنيان، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء. «وتدع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك».

وهم يقولون إنَّ فيها سعواً ونحوساً، إنما في الفلك سعدان ونحسان، يعنون بها المُشترى والزُهرة وزُحلَّ والمَرِيخ، ونَبْران، وهما الشمس والقمر؛ ولا يصحُّ لعالم أن يتكلم عليها إلا بمزج بَعْضها بِبَعْض، فكيف يكون لها الحكم؛ وعى أصدادُ، والحاكِم لا يضاؤُ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كله؛ وهو مُصرِّفُ الدهور بما يشاء؛ لا إله إلا هو العزيز الحكيم! وليس في العالم أمرٌ يثبت؛ وعلى هذا بُنيت الدنيا، وكذلك الدُّوَل والمِلَل: كلُّ يأتي في أوانه، ولا يتعدى وقته؛ والدينُ صلاحُ العالم، ولا عدلٌ إلا به، والمُلْك يعضده ويحميه، وهو قوام العالم على ما رتب البارئ عزَّ وجلَّ.

٤ - ضرورة التعليم والتجربة

وأعلم أنَّ العقل محتاجٌ إلى التعلُّم، ولا يستحکم تعلُّمٌ إلا بتجربة، ولا تتحكَّم تجربةٌ إلا ما كان فيها بعض النكد والإشغاف؛ فالإنسانُ على ما ضرى عليه وعلى أن السعيد من انعطَّ بغيره؛ لكن من شأن الإنسان التسويف و«لعلَّ» و«عسى»؛ فإذا أُخْتِجَ في ذاته، أعقبه ذلك يقظةً وحنكةً. وكذلك من أخوَجَ إلى نفسه كأنما لا يتكل على غيره.

(١) ورد في مفتاح كنوز السنة.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

فينبغي للعاقل أن يعمل نفسه في رياضة ذلك، والتمرن فيه، إن لم يحوجه الدهر؛ وإلا: فليتعب ذهنه، ويشغل باله بالفكرة فيه، خوفاً أن يُضطرَّ إليه، وأن الدعة غير دائمة. فإن احتاج إلى نفسه، وجدها؛ وإن استغنى عنها، عرف فضل ما هو فيه، وكانت لذته به أشدَّ تمكناً: فإنه^١ [ق ٤ ب] لا يعرف قدر الخير من لا يعرف الشر. وإعمال الفكرة في هذه المعاني كالتمرُّب بها: فإن الاهتمام بما لم يكن بلاءً في النفس كائن، وذلك البلاء مؤدَّب، وإعظ، نافع، مضمحل، خير من بلاءٍ موجه حال.

وقيل: ليس العلم بكثرة الرواية؛ إنما هو نورٌ يضعه الله في القلوب. ولا عذر للإنسان في أن يجهل علماً يليق به، لقول الله تعالى: ﴿فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١). ومن حُسن إسلام المرء تزكته مالا يعنيه. وليس كل ما حُضَّ عليه ونهى عنه على العموم، بل لذلك كله حُكمٌ يحسنه العاقل؛ والجاهل لا يحسنه، وإن جهد جهده.

٥ - التكوين السياسي للمؤلف

وقد كُنَّا - معشر أهل بيت المملكة - نرى من آكد ما نتأدَّب به إعمال السياسة في طلب الرياسة، والسعى لها بكل الوجوه، وإحضار الأذهان، ما لو أن المفرد في بعض ذلك منا يكون أفضه الناس في سائرهما من العلوم، لكان عندنا ناقصاً، لا يصلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافس على ذلك.

وقتلناها نحن علماً لرياضة أنفسنا لها، وما أجرنا^(٢) عليه آباؤنا، وبصرونا فيه من أول نشأتنا.

وتلك صناعةٌ وجب تعلُّمها لضرورة الحال، كسائر الصنائع التي منها معاش الناس، ولا بد لهم من إتقانها. ولعمري إن الوالي أكثر علماً وأحسن عقلاً: فإن جميع عقول الناس تعرض لديه، ويجرب في موضعه مالا يجرب غيره في قلبه في البلاد، وإليه تهدي الأخبار، ويتخاصم الناس، وعنده يقع الطلب، وترفع الحاجات، وتقع العناية؛ فيرى ويسمع كل يوم جديداً لم يره أمس. وقال عمر بن العزيز - رضى الله عنه - : «لستُ كخب، ولا الخب يخدعني!» وقيل: «فلان لا يعرف الشر». قال: «ذلك أجدر أن يقع فيه!».

ولما^٣ [ق ٥ أ] كان المظفر جدنا - رضى الله عنه - قد أوتي من الداهي والتميز لأحوال الزمان مالا يخفاً به، وأنه من آكد ما يجب له النظر فيه ترشيح أحد بنيهِ للولاية بعده، وأن ذلك لا يتم إلا بتمرينه وإعماله في جميع خدمته، كي يتدرَّب ولا يخفى عليه من أمور الدولة ما يحتاج إليه فيه نفسه، كنت ممن وفقه الله لبره والانصياع لوصيته. فأمر بإخراجي من المكتب إلى التصرف بين يديه، وقال لي - نصر الله وجهه -: «معك من الكتابة وتلاوة

(١) سورة النحل الآية ٤٣ وسورة الأنبياء، الآية ٧.

(٢) أصل: «أجرونا».

القرآن ما يكفيك! وهذا أولى ما تتعلم! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون مني وما ينقضى في دولتي أيام هذه الفتن؛ فإن الزمان أشد، والأيام أقصر من أن تُدرِك تعلم كل شيء؛ يعنى به الملوك لأبنائهم! » .

فامتثلتُ حدّه، وأخذتُ نفسى أولاً بالتواضع له واختصار كل شيء يقع منه فى نفسه أنى أشدّه به إلی تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة؛ بل كنتُ أتأبى له عن ذلك، ولا أحكم بين اثنتين إلا عن مشورته ومشاركة أهل السن والعقل من وزرائه، وأنزل نفسى لهم بمنزلة الابن، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقِعاً ارتضونى به للخلافة من بعده. واتفق فى ذلك رأيهم مع رأى الجدّ - رحمه الله.

ولم يكن منها نهاراً إلا وأستفيدُ فيه فائدة من تجربة وحُكمة. وما كنتُ أجعله من الأشياء، أجدُّ له أعواناً من الوزراء، يعلموننى بالصواب فيه لقلّة خلافى عليهم وبرى بهم.

كل ذلك [من] الأسباب التى أذن الله من أجلها ولايتى من بعده. وقد كان من أهل بيت المملكة من يصلح لها قبلى، ومعنى من أخ كبير وعمّ وقرابة أتوقع استهدافهم إلى وتغلبهم على، ما لو أنفقتُ مِلءَ الأرض على كفاية شره، ما استطعتُ له. فكفانى الله تعالى ما كنتُ ³³ [ق ه ب] أتوقع، وأرأى الخيرة فى عاقبة كل أمر كنتُ فيه أكرهه. فتحنُّ جدراً بتعداد نعم الله والإنصاف فى شكره، كما حضَّ الله عليه فى قوله لنبيه - عليه السلام - ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(١).

وقد كان أبونا سيف الدولة - رحمه الله - مرشحاً للملكة، كثيراً حبُّ أبيه له، وجمعه الأموال من أجله، وتدريبه عليه بكل وجه. وكان - رضى الله عنه - من العقل والكرم وحسن الخلق والحلم ما شهّر به فى البلاد، واجتمع عليه محبة العباد. ولم يكن للمظفر جدناً غيره؛ فتوفى - رحمه الله - ابن خمسة وعشرين عاماً. وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة ما يردُّ بعد هذا إن شاء الله.

٦ - صعوبة الإنصاف التاريخى

وأول ما ينبغى تقديمه ذكْرُ دخولنا الأندلس، وكيفية ولايتنا إيها، إلى هلمَّ جرّاً. فإنّه، متى أتينا على خير يطيب ذكْرُه فى هذا التأليف، للمُعْتَرَضِ أن يقول: «هذا أحسن لو كان على أصل يُحمد، وعن ولاية تُرتضى!» فينطق هدراً دون اختبار ولا إنصاف، على أن الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلا فى مُدتها وأيام سعادتها، ولو كانت ظالمة؛ فلا يقع فيها الذمُّ إلا بعد توليها، ولو كانت عادلة. والناس مع من سبق إلا من نظر بعين العدل، لا بعين الهوى؛ وقليل ما هم!

(١) سورة الضحى الآية ١١.

ولترى أن لا شيء في العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره. ولا يتعلق بالسعادة إلا كل مستحسن من غير تكدير، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى سرور. وليس مع الإقبال إقبالاً إلا تمام المدة.

ولا يتفق الناس أجمع على مدح أحد ولا على ذمه: فإن رضي العامة أمر لا يدرك، ولا بد للوالي أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة؛ فالمقضى عليه انقلب ساخطاً، والمقضى له انقلب راضياً، وكلاهما يتكلم على شهوة نفسه. فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد^١ [ق ٦ أ] أو مدحه؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوى بين [أمر خلقه، وجديراً، وإن] كَيْفَت، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات.

٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ مثل المنصور

وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا، فإنما تجدّه كائناً بأرق سبب: فمن بين جاهل مسعود أو حاذق مُمخَرَق. وإذا بَعَثَت على ما هو فيه أعين استحقاق تصير إليه، لم تختبر من فعالة ومقاله شيئاً يشذ عن العالم، ولا يشف على رأى من تزدرية عينك، ولأن الجهل في العامة أغلب، والباطل إلى عقولها أسرع: استعظمت ما هو عند اللبيب حقير، وتكلمت على ما ظهر إليها، ولم تقس عليه بعقولها، والله ما بطن، وللناس ما ظهر. ولهذا ترى صاحب الناموس أرفع ذكراً وأطيب نساءً، وإن كان يرأى. وقد كان المنصور بن أبي عامر، على دقة شأنه قبل، ولأنه لم يكن من أهل بيت المملكة، فيستحقها عن الآباء، ولا كانت به قدرة على الدنيا؛ قد حصل على عظام بدائه ومخرفته على العامة، مع ماهيات السعادة له (وكان أقوى الأسباب في سلطانه). وقد ذكر بعض أهل العلم بالتهنئة أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره.

ولولا قيامه بدعوة الخليفة، وإظهاره الانخضاع له [في جميع] ما يأتي ويذر إلى طاعته وإقامة أوده؛ وتوليته الحجابة والوزارة، وإخماله لأهل الدولة الحكيمية^(١)، وتقصيهم بالقتل، متأولاً في ذلك أن دولته تصفو^(٢) به ويقوى سلطانه، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وهلاك المسلمين. حتى اتسق له ما أمل، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى - ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعليق بسبب أو إظهار طاعة، [لكان قتل] من ساعته، ولو كان من أهل بيت الخلافة - إلى أن ورث الأمر ابنه من [بعده، فسار المنصور]^(٣) [ق ٦ ب] بأحسن سيرة وأجسد طريقة؛ وكانت له في بلاد العدو فتكات، نال الإسلام في أيامه عزاً ما كان بالأندلس [مثله]، وأذل ما كان النصارى عليه.

(١) في الأصل: الحاكمية.

(٢) أص: أن به تصفى دولته.